MENA RESEARCH CENTER
مركز أبحاث ودراسات مينا

خريف الأصولية الإسلامية؛ وتصاعد أصوليات أخرى!

وحدة الدراسات الاجتماعية في المرصد

حقوق النشر والطبع ورقياً والكترونياً محفوظة لصالح مركز أبحاث ودراسات مينا.

يجري في العالم الذي نعيش فيه اليوم تحولات جذرية على أكثر من صعيد، تحولات تجعلنا نفكر في جدوى وأهمية كل ما يحصل حولنا من جهة، وفي معنى هذه التحولات وتوجهاتها وأثرها على مستقبل المجتمعات الإنسانية، والوطن الذي نعيش بين طياته، وهي تحولات نرى أثرها واضحاً اليوم على حياتنا، تعكسها وتشير إليها عدة ظواهر مقلقة ميزت العقد الأخير من عمر البشرية، منها: ظواهر ترامب وبوتين وأردوغان، صعود اليمين والفاشيات، وعودة التدخل الأجنبي بكثافة، وسقوط الحدود في أكثر من مكان في العالم، ناهيك عن جائحة كورونا وما كشفته في أنظمة العالم وعقله الحاكم عن مدى هشاشة الحضارة البشرية.

نحاول في هذه الورقة تحليل عودة ظاهر التدين المترافقة مع خريف الأصولية الإسلاموية وتصاعد أصوليات دينية أخرى غير إسلامية، من خلال المحاور التالية:

- **المدخل**
- **عودة التدين وانبعاث الأصوليات الدينية**
- **ما سبب عودة الهويات الدينية والطائفية المتحاربة؟**
- **ضمور الحداثة والعودة إلى التدين!**
- **خريف الأصولية الإسلامية، وتصاعد أصوليات أخرى!**
- **الخاتمة**

المدخل

إن مناقشة هذه الظواهر والغرق في تحليلها وتفسير أسبابها، على أهميته وضرورته، وما قد كتب كثيرون حوله، ليس كافياً وحده لفهم طبيعة ما يجري، إذ لا بد من البحث في الجذور المؤسِسة لكل ما يحدث اليوم، ففي لحظة ما في التاريخ الذي لم نقرأه جيداً، تشكلت مجموعة ظروف وشروط ساهمت في تشكيل الظاهرة الأصولية الجهادية أو الترامبية أو البوتينية أو صعود اليمين وغيرها، ما يعني أن دراستها وحدها لا يكفي لفهم ما يجري ما لم يتناول البحث والدراسة والنقد الأسس المكوّنة لكل ظاهرة منها، لنفهم ما حدث عبر معرفة كيف تشكل وتكون وتأسس؟ ومن ثم كيف تغذى وتطور عبر معرفة الروافد الفكرية والسياسية والإيديولوجية والاقتصادية التي ساهمت في ذلك؟ وليس انتهاء بمعرفة تغذي الظواهر من بعضها بعضاً وتفاعلها عبر قراءة السياق العالمي الذي ولدت فيه.

فعلى سبيل المثال حتى يبدو الأمر واضحاً؛ كيف تتغذى البوتينية والترامبية والأردوغانية من بعضها البعض من جهة؟ ومن الدين من جهة أخرى؟ وكيف تتغذى كل منها مجتمعة من صعود اليمين والأصوليات على اختلاف أشكالها؟ وكيف يتأثر كل منها بالتحولات الجارية في العالم اليوم؟ بدءاً من جائحة كورونا؛ وليس انتهاءاً بعودة الصراع الدولي على منابع الطاقة كما نرى في شرق المتوسط، على سبيل المثال لا الحصر.

ولأننا لا نستطيع في دراسة واحدة أن نحيط بكافة الظواهر والتحولات الجارية في العام اليوم، سنركز في هذه الورقة على مسألتين اثنتين، نعتقد أنها مهمتان جداً في جملة التحولات التي نشهدها، محاولين أن نقبض في استعراضنا هذا وفي كل منها على عمق هذا التحول وجذره واحتمالات آثاره في مستقبل العالم.

عودة التدين وانبعاث الأصوليات الدينية

يجري الحديث اليوم عالمياً، وبكثافة، عن ظاهرة عودة الدين وانبعاث الهويات العابرة للوطنية، وهو أمر نشهده بوضوح في سطوع الظواهر والرموز الدينية في السياسة والحياة العامة، إذ بعد أن كان من المعيب في خمسينات وستينات القرن الماضي الحديث على مستوى الدولة والحياة العامة ـ باستثناء الدول ذات الطابع الديني طبعاً ـ عن الأصول الدينية والطائفية أو التصريح بعبارات ذات مدلول ديني أو طائفي في قمة هرم السياسة، نجد أن عالمنا اليوم يفيض وبكثافة أيضاً بالتعابير والتصريحات الدينية (ترامب، أردوغان..)، دون أن يتوقف الأمر هنا، بل ثمة سعي حثيث لتوظيف الديني في السياسي، حيث يستقبل رجال الدين على أعلى المستويات السياسية ويوظفون مواقعهم ومعارفهم الدينية في خدمة هذه السلطة أو تلك، كما نرى في مسألة الكنيسة الأرثوذكسية مع بوتين والإسلام الرسمي السني مع أردوغان والمسيحية مع دونالد ترامب، والهندوسية في الهند، وغيرها

وهذا يتوازى مع صعود هائل للهويات الطائفية والقومية والعشائرية في أكثر من مكان في العالم، إلى درجة أن المرء بات يشكك بأن الهوية الجامعة التي شكلت بعض هذه الشعوب؛ هل كانت موجودة

حقاً؟ فتمسك الأوكراني اليوم بهويته ودولته الجديدة؛ يدفعنا للتساؤل أين الهوية السوفياتية التي ضمت هؤلاء لمدة قرن من الزمان؟ وأيضا إن تمسك الصرب والبوسنيين بهوياتهم ودولهم الجديدة، يدفعنا للتساؤل عن الهوية اليوغسلافية التي ضمتهم يوماً ما، وهذا ينطبق أيضاً على كل الظواهر الأخرى التي يشهدها عالمنا اليوم في هذا السياق.

فما أسباب ذلك؟ وكيف تشكل هذا الجديد وأين ذهب القديم؟ هذا إن كان قد ذهب حقاً؟

ما سبب عودة الهويات الدينية والطائفية المتحاربة؟

لا شك أن لكل بلد وكل دين وقومية وهوية سياق وشروط تحكم تكوّنها وتدهورها، ونحن هنا لا نريد أن ننفي ما يخص كل ظاهرة، إلا أنّ هناك أيضاً سياق عام ينطبق على بعضها، وهذا ما سنسعى لنقاشه هنا، عبر إجماله في مسألتين اثنتين.

أولاً: في مسألة الدول التي كانت محكومة بشمولية سياسية استبدادية:

مثل الاتحاد السوفياتي أو تركيا أو يوغسلافيا وأيضاً في استبداديات شرقنا البائس التي ادعت الطابع العلماني، هنا لا يصح أبداً أن نتحدث عن عودة الدين والهويات الفرعية، لأن هذه، على خلاف ما تم الترويج له طيلة القرن الماضي، لم تختفي أساساً حتى تعود، فما جرى هو أن القوة السلطوية فرضت بقوة السجن والاعتقال والعسكرة نمطاً إلحادياً ما أو قومياً محدداً لا مكان فيه للدين في الحياة العامة والسياسية، وذلك عكس إرادة الشعوب والمجتمعات التي أعطت للسلطة ما لها، وبقيت تمارس هويتها الدينية والقومية داخل فناء بيتها بنعومة.

ما جرى هنا ليس غياب للدين أو الهوية القومية الصغيرة، إنما احتجاب قسري لهما شعبياً، ونقل مؤسساتها من كونها ضد السلطة إلى أداة بيد السلطة. وساعد في ذلك الطريقة التي تم فرض الأمور بها، دون مراعاة عامل الزمن والثقافات والهويات الفرعية، فما أراده هؤلاء إحلال هوية أو قومية أو دين جديد بين ليلة وضحاها، غير مدركين مدى تجذر القديم في الوعي السائد وأن هذا القديم يحتاج مناخاً ديمقراطياً للتطور والنمو والانتقال من طور إلى آخر أعلى وأرقى.

في حين أن الاستبداد لم يعمل إلا على تجذيره لأن الحفاظ عليه اتخذ سواء عن وعي أو لا وعي، طابع المقاومة للسلطة المستبدة. ولهذا عندما انهارت هذه الدول، لم يعد الدين بقدر ما أن الغطاء الحاجب له؛ انكسر، وانكشف فظهر ما تحته، بكل جماله وقبحه، لأن سنوات الاستبداد وشوهت وعبثت بهذه المكونات، محولة إياها إلى هويات متحاربة ومتضادة في كثير من الأحيان، كما نشهد اليوم في سورية مثلا بعد أن انكسر قيد الاستبداد.

ثانياً: عودة التدين!

يجري الحديث اليوم أيضاً عن عودة التدين إلى أذهان الناس والحياة العامة والسياسية بكثافة داخل الدول الديمقراطية نفسها، الأمر الذي يشكل ظاهرة جديدة بحد ذاتها، لأن التفسير الذي قُدِم أعلاه فيما يتعلق بطبيعة الاستبداد وأثره على الدين أعلاه لا ينطبق هنا، **فما تفسير ذلك؟**

ففي العالم الديمقراطي الغربي، يصح الحديث جزئياً عن عودة الدين، نقول جزئياً وليس كلياً، لأن الدين من جهة لم يغب أيضاً، كيف ذلك؟

ضمور الحداثة والعودة إلى التدين

نستطيع أن نرصد في العالم الديمقراطي الغربي، مسألتين متجاورتين:

المسألة الأولى:

هي ما يمكن أن نسميه انكشاف أو انهيار حجاب الحداثة، أو ضمورها! وهو أمر يشبه انهيار الاستبداد الذي كشف ما تحته، بمعنى أن ثمة شرائح كبيرة من الجماهير في العالم الديمقراطي لم تتخل عن التدين أبداً، وبقي الدين حاضراً في حياتها اليومية رغم علمانية الدولة.

المثير هنا أن السلطة، حتى في العلمانيات المتشددة، لم تلغِ الدين من الحياة العامة، ولم تدخل في حرب شاملة ضد الدين كما في الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية مثالاً، إنما كل ما فعلته أن أقصت الدين من الحياة السياسية والحياة العامة المباشرة أي ذات الصلة بحياة الأخرين، ليتحول الدين شأناً فردياً خالصاً.

لكن الذي جرى هنا أن الخطاب المسيطر للحداثة كان خطاباً انتصارياً وتعميمياً، بمعنى أن الخطاب أعلن انتصاره على الدين، وعمّم خطاب انتصاره هذا إلى درجة أنه أصبح حقيقة لا تناقش! في حين أن الواقع شيء آخر، ولهذا فحين استنفذت الحداثة ووصلت نهايتها، أو لنقل بدأت تجدد نفسها، وفق تعبير آخرين يرفضون إعلان نهاية الحداثة، جرى الانتباه للأمر، وبدأ هذا الصوت ينحسر، ليعود ويجد ما تحت خطاب الحداثة نفسه تعبيراً وصوتاً له في الفضاء العام.

وأما المسألة الثانية:

هي التي ترصد عودة فعلية للتدين! وهو ناجم عن تراجع ثقة الناس بالحداثة نفسها وبمسارها، حيث وصل قطار الحداثة إلى منتهاه وانكشفت محدوديتها وعدم قدرتها على تقديم الخلاص الدنيوي الذي وعدت به، فبدأت المجتمعات تبحث عن بدائل من داخل الحداثة ومن خارجها في آن واحد، بدائل تتمثل في إعادة الاعتبار للروحي في عالمنا، فالإنسانية محتاجة اليوم للروحانية نتيجة جفاف المادية المسيطر على نمط معايش الناس، وهي بدائل بدأت الدولة الحداثية نفسها تتبناها اليوم بعد أن تبين لها أن الحاجة الروحية للبشر؛ لا تقل أهمية عن الحاجات المادية؛ فعلى سبيل المثال يحق للجنود الألمان اليهود والمسيحيين الحصول على حق الرعاية الروحية داخل الجيش ويناضل المسلمون في ألمانيا لكي يمنح الجنود المسلمون الحق ذاته اليوم.

فبدأ العمل على تصحيح مسارها في هذا المجال، وهو ما فتح الباب واسعا أمام عودة التدين وتمدده، مع الانتباه لنقطة مهمة وجوهرية هنا، ألا وهي أنّ عودة التدين التي نشهدها في السياق الغربي الحداثي هي غير عودة الأصولية الدينية التي نشهدها في أماكن أخرى من العالم، ومنها شرقنا البائس على سبيل المثال لا الحصر، لأن التنوير الديني الذي شهده العالم المسيحي الغربي،

والديمقراطية الذي أتاحت حرية البحث والنقد، فتحا المجال واسعاً أمام الدين نفسه ليتطور ويتقدم ويتغير وفق البيئة التي يعيش بها، الأمر الذي يتيح لنا الحديث وبقوة عن تدين ملائم لعصره وغير متصادم معه. وهذا ما لم يحصل في شرقنا البائس!

في حين أن هذا الأمر لا ينطبق على الحالات الدينية الأخرى في كافة أرجاء المعمورة، لأن التدين الذي يعود اليوم في تلك البقاع، هو نفسه التدين الذي كان سائداً قبل قرون، دون أن تطاله يد التحديث والحداثة، وهو ما ولد لنا ظواهر الأصولية الجهادية الإسلاموية، التي ولدت في سياق الحداثة نفسها، كما تحدث «أوليفيه رووا»، والتي قد تكون في انحسار اليوم بعد سلسلة الهزائم التي عانتها، ولكن بالمقابل نشهد صعوب أصوليات أخرى هندوسية وقومية ويمينية غربية، وهي الظاهرة الثانية موضع ورقتنا هذه.

خريف الأصولية الإسلامية، وتصاعد أصوليات أخرى!

كانت الحرب الأفغانية التي شارك بها ما عرف بظاهرة الجهاديون العرب نقطة انطلاق أولى لما عرف لاحقًا باسم الأصولية الجهادية العالمية الإسلاموية، التي ولّدت العديد من الحركات المشابهة لها في الحركية والتنظيم والتحشيد والإيديولوجية العميقة رغم اختلافها في بعض التفاصيل، فمن رحم القاعدة وطالبان وعلى ضفافهما أيضاً ولدت العديد من التيارات الدينية الراديكالية (أحرار الشام، جبهة الإنقاذ، جند الشام، فروع القاعدة، حركة طالبان، بوكو حرام، جبهة النصرة، داعش إلخ) والتي شكلت بمجملها الظاهرة الأصولية، والتي نجمل معها عموماً، الحركات الأصولية الجهادية الشيعية مثل حزب الله وحزب الدعوة والحشد الشعبي والحوثيين، المشدودة إلى مركزها في طهران سياسياً؛ ومدينة قُمْ دينياً، وهي تختلف في هذه النقطة عن الأصوليات السُنية التي تبدو وكأنها تتحرك في فضاء سديمي مفتوح دونما قيادة، وهو ما يزيد في تشتتها وهزيمتها، ولكن أيضاً في إمكانية استمرارها وصعودها هنا وهناك.

في البداية المؤسسة لهذه الظاهرة، والتي ولدت في الحرب الأفغانية، نستطيع أن نرصد عدة أمور ستبقى حاكمة لهذه الظاهرة التي أقلقت العالم لعقود ولا تزال، وهي الدور الغربي الأمريكي في ولادة هذه الظاهرة والدور الخليجي في تمويلها (النفط) ودور النظام العربي الرسمي الاستبدادي في توليدها عبر معاندة الحداثة السياسية؛ وتجاهل تيار التنوير الديني؛ أو استغلاله وتوظيفه لمصالحه، لنكون إزاء تلاقي مصالح بين النظام العالمي ممثلاً بالمركز الأممي الأمريكي والمال النفطي العربي والاستبداد، وهي ثلاثة عوامل يكفي اختلال أحدها لتنحسر الظاهرة، ويكفي اجتماعها لتنتعش.

وإذا دققنا في مسارات الصعود والهبوط، سنرى الأمر واضحاً، فحين تتلاقى مصالح هؤلاء كما حدث في اللحظة الأفغانية المؤسسة، نشهد توسعاً وتمدداً للظاهرة، وحين تتضارب تضمر الظاهرة ولا تأخذ بعداً كبيراً، وربما تتلاشى نوعاً ما، وهو ما حدث مثلاً حين تضاربت المصالح الأميركية والسورية والإيرانية بعد احتلال العراق، حيث تريد واشنطن منع القاعدة ويريد النظامان السوري والإيراني دعمها لهزيمة الأمريكي في العراق أو منع انتصاره الكلي، وحين اتفقت الأطراف وكفت دمشق عن السماح لهم بالعبور مودعة إياهم في سجونها تراجعت الظاهرة في العراق، لتعود وتنتعش في سوريا بعد اندلاع

الثورة، حيث تلاقى المال الخليجي والرغبة الأمريكية/ الغربية ومصلحة النظامين السوري والإيراني في شيطنة الثورة السورية من خلال تعويم التطرّف؛ وفسح المجال له، وكلٌ له أهدافه الخاصة، وإن تضاربت أهدافهم فيما بعضها. وحين حقق كل طرف ما يريد، يجري العمل اليوم على إعادة الظاهرة إلى حجمها الطبيعي لاستخدامها في ساحات أخرى لاحقاً كالحال في أفغانستان وتسليمها لطالبان.

إلا أننا هنا اليوم، قد نكون نشهد خريف الأصولية الإسلامية بالشكل الذي شهدناه عبر العقود الثلاثة الماضية، لأن العوامل والأسس التي ساعدت في نشوئها؛ قد تحولت وتبدلت، وربما انهارت هي الأخرى، فما يجري اليوم ونشهده قد يكون وفق رأينا خريف الأصولية الإسلامية، دون أن يعني انحسارها الكلي، لأن ما جرى خلال عشرية الربيع العربي جعل الأمور مكشوفة وأكثر وضوحاً للمراقبين في شرقنا البائس، بسبب انكشاف لعبة الاستبداد في علاقته مع الإرهاب من جهة، وانكشاف لعبة المصالح الدولية في تجييرها الاستبداد لخدمة مصالحها أيضاً، ناهيك عن انكشاف دور رجال الدين والمؤسسات الدينية في خدمة مصالحها المالية التي يشكل الدين رأسمالها، مضافاً لكل ما سبق تهتك الإطار الوطني للصراعات وانهيار الجيوش أو فقدان الثقة بها.

لكن الملفت للانتباه هنا، أننا مقابل هبوط الأصولية الإسلامية بشقيها السني والشيعي ــ خصوصاً بعد الانهيار الكبير الذي شهدته أسهم النموذج الإيراني والسني مؤخراً في المنطقة ــ نشهد صعود أصوليات أخرى في العالم، ففي ميانمار والصين والهند يتعرض المسلمون لاضطهاد كبير على يد أصوليات بوذية وقومية وهندوسية، فيما نشهد تصاعداً مرعباً للأصولية اليهودية في فلسطين المحتلة، والتي يعبر عنها بوضوح قانون القومية اليهودية، إضافة إلى الأصولية المسيحية في أمريكا والتي يحملها المحافظون الجدد، دون أن ننسى صعود اليمين الأوربي الذي هو في العمق تجسيد لأصولية مسيحية متطرفة، عبّرت عن نفسها مؤخراً في حمل أعلام «الرايخ» الألماني (وهو علم الإمبراطورية الألمانية) خلال مظاهرة ضد إجراءات كورونا شارك فيها واستغلها اليمين الألماني في محاولة للهجوم على رمز الديمقراطية الألمانية، ونعني «البوندستاغ» الألماني (البرلمان). وإذا عرفنا بأن النازيين أحرقوا البرلمان بعد وصولهم السلطة، سنعرف المعنى الرمزي لهذه الخطوة، فهل نشهد صعود أصوليات أخرى في العالم اليوم مقابل انحسار الأصولية الإسلامية التي شهدت خريفها أم ماذا؟

ختاماً

ما سبق يوضح لنا أن الظاهرة الدينية ومسألة الهوية عموماً، شهدت وتشهد تحولات كثيرة، سيكون لها دور بارز في تشكيل عالمنا المقبل، حيث ستنهار نظم فكرية كانت مؤسِسة، لتتشكل بديلاً عنها نظم جديدة سيكون لها دور بارز في شكل وطبيعة المؤسسات الناظمة، ليس لعلاقات الدول (هذا إن بقيت الدولة نفسها) فيما بينهما فحسب، بل أيضاً لعلاقة الأفراد بدولهم من جهة، وفيما بينهم من جهة أخرى.

مراجع تمت الاستعانة بها:

1. أوليفيه روا، تجربة الإسلام السياسي، دار الساقي.
2. أوليفيه روا، الإسلام والعلمانية، دار الساقي.
3. أوليفيه روا، عولمة الإسلام، دار الساقي.
4. أمين معلوف، الهويات القاتلة، دار الفارابي.
5. محمد مجتهد شبستري، الحداثة والمعرفة الدينية، موقع حكمة
6. جان ماريجكو، اللامتناهي الفيزيائي واللا متناهي الروحي: لم تتسبب الحداثة في الجنون؟ موقع حكمة.
7. العلم والدين، موسوعة ستانفورد للفلسفة، موقع حكمة.
8. سام هاسبلي، لحظة تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية لمجتمع حديث متحرر من الدين: كيف انحرف المسار؟، موقع حكمة.

MENA RESEARCH CENTER

مركز أبحاث ودراسات مينا